# الهُوِيَّةُ بينَ الكِتَابةِ التَّاريخيّةِ والذَّاكرةِ الجَمْعيّة
## نَحوَ نَمُوذجٍ ذَاكِراتيٍ فِلَسطينيّ

زهير سوكاح

في سنة 2002، صَدَرَ في ألمانيا كتاب تاريخي بعنوان **تاريخ فلسطين** (*Geschichte Palästinas*) لمؤلفته غُودرون كريمر (Gudrun Krämer)، وقُدم هذا الكتاب على أنه من المراجع العلمية الموثق بها في فهم الحيثيات التاريخية التي أدت إلى احتلال فلسطين، وإلى إعلان قيام الدولة العبرية، وقد لقي انتشاراً واسعاً لدى القرّاء الأكاديميين. في كتابها هذا، نجحت كريمر في إعادة تسويق الرواية الصهيونية للمأساة الفلسطينية باحتراف وبإتقان شديدين؛ فطريقة عرض الكاتبة لأحداث تاريخية حاسمة تحت غطاء "الموضوعية" و"العلمية"، وكذا اختيار مُسميات تزويرية محددة لوصف وقائع تاريخية أليمة، إضافة إلى إستراتيجيات تلفيقية أخرى دقيقة، أدت إلى وصول حقائق مزيفة حول تاريخ المأساة الفلسطينية للقارئ.

### الكتابة التاريخية "الموضوعية" وقابلية التحيز

هذا النموذج من الكتابة التزييفية المُتقَنة للتاريخ، هو ليس مثالاً حياً على غلبة الرواية الصهيونية المُمكن لها لأحداث ما قبل 1948 وبعدها على حساب نظيرتها الفلسطينية المُغيبة فحسب، بل هو كذلك مثال عملي جيد على قابلية "الكتابة التاريخية" لتحيُّز الأيديولوجي، وعلى أن تكون أداة تلفيقية طيعة لوقائع ماضية بل وحاضرة، فالموضوعية والعلمية والحيادية هي سمات ظاهرية للكتابة التاريخية، تنتج توثيقاً تاريخياً للأحداث الماضية، ظاهرياً يبدو رصيناً لكنه مُؤدلج في أبعاده. على ضوء هذا، يمكن القول إن الكتابة التاريخية هي خاضعة لمنطلقات أيديولوجية تحدد لها سلفاً توجهاتها وأهدافها المُعلنة وغير المُعلنة، ومن ثمة فإنها بالدرجة الأولى تسجيل غير نزيه لوقائع التاريخ، على الرغم من التكرار الدائم لاتصافها البديهي بالموضوعية والعلمية والتجرد في معالجتها لمادتها.

هذا المعطى هو ما حدا بالباحثة الألمانية أستريد إرل (Astrid Erll) في كتابها **الذاكرة الجمعية وثقافات التذكر** (*Kollektives Gedächtnis und Erinnerungskulturen*) إلى اعتبار أن المصادر التاريخية "العلمية" لم تكن يوماً من الأيام انعكاساً نزيهاً وصادقاً للماضي؛ فالكتابة التاريخية تبقى في نهاية المطاف نتاجاً "مصطنعاً" يسعى إلى تفسير الماضي منظورياً؛ أي وفق منظور محدد بل وأحادي، إلى جانب هذا، فإن عمل المؤرخ ليس أبداً تحقيق الإنصاف الموضوعي، بل الكتابة التاريخية فقط. علاقة المؤرخ بموضوعاته التاريخية هي إذن علاقة شخصية إلى حد ما، فهو يتعامل معها وفق منظوره الشخصي الانتقائي، حتى أن البنية السردية التي تظهر فيها الأحداث التاريخية الماضية مُجدداً هي من اختياره الشخصي. على هذا الأساس، ترى أستريد إرل أن اتصاف الكتابة التاريخية بـ: "الموضوعية" و"الحيادية" العلميتين هو أمر ليس من المستحب التسليم به بسهولة.[1]

إلا أن الكتابة التاريخية ليست بالتأكيد الوسيلة الوحيدة المعتمدة في توثيق الماضي وتسجيله، ومن ثمة الرجوع والاستناد إليه، فأستريد إرل تتحدث في مرجعها هذا عن نمطين رئيسيين من التعاطي مع الماضي: النمط التاريخي، النمط الذاكراتي، بكلمات أخرى: "التاريخ"، "الذاكرة". فإلى جانب الكتابة التاريخية "العلمية"، نجد أن الفعل التذكري (الفردي أو الجمعي) هو أيضاً تسجيل تفسيري للماضي، إلا أن التذكر ليس ضرباً من ضروب الكتابة التاريخية، ولا يقف عند الحدود التي أوجدتها هذه الأخيرة لنفسها، ذلك أنه يتمتع باستقلالية تامة، بل ويتجاوز علم التاريخ مفهومياً ووظيفياً.

على ضوء هذا، يمكننا الآن التخمين في وجود تخالفات جوهرية بين هذين النمطين الرئيسين في معالجة الماضي على مستوى السمات والوظائف، وهذا ما اهتدى إليه فعلاً الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي موريس هالبواكس (Maurice Halbwachs)، الذي كان له السبق في دراسة هذا التخالف بين التاريخ والذاكرة دراسة علمية دقيقة في أواخر العشرينيات من القرن الماضي؛ ففي كتاباته التنظيرية حول ما سمّاها بـ "الذاكرة الجمعية"، وضع هالبواكس مجموعة من التقابلات المهمة بين كلا المفهومين بهدف إبراز السمات المفهومية والوظيفية لكل منهما (ومن ثمة إيجاد منطلق مناسب لشرح نظريته "الذاكرة الجمعية").

### "التذكر الجمعي" في مقابل الكتابة التاريخية

يُشدد هالبواكس على أن العملية التذكرية تتم في الحاضر: لحظة تذكر

الماضي هي دائماً في زمن الحاضر؛ بمعنى أن التذكر هو عملية إعادة بناء الماضي بمساعدة الحاضر. إلى جانب هذا، فالتذكر (الفردي أو الجمعي) يستحضر أحداثاً ووقائع ماضية بانتقائية محضة، وعبر هذه الانتقائية المقصودة يُلبي التذكر احتياجات الفرد المتذكر أو الجماعة المُتذكرة ورغباتهما، على العكس تماماً من الكتابة التاريخية التي تقوم بتسجيل جميع -أو على الأقل معظم- وقائع الماضي دون انتقائية (ظاهرية)، وجعلها في متناول الجميع، ذلك أنها تنظر إلى أحداث الماضي على أنها متكافئة ومتساوية فيما بينها؛ أي على الدرجة نفسها من الأهمية التأريخية.

يظهر لنا الآن وبشكل جلي، أن الكتابة التاريخية هي غاية في حد ذاتها، بينما التذكر الفردي -الجمعي هو وسيلة لتحقيق مُبتغيات مُحددة. ومن هنا نستشعر قوة الجانب الوظيفي في العملية التذكرية وديناميته، الذي يجعلها نمطاً مستقلاً بذاته من أنماط الارتباط بالماضي كما أشرنا سابقاً.

ليس من الممكن إذن النظر إلى التذكر الفردي -الجمعي كتخصص "علمي" مثل الكتابة التاريخية، ولا هو أيضاً يدعي لنفسه "علمية" علم التاريخ أو "حياديته"، بل هو -كما يصفه موريس هالبواكس- ظاهرة سوسيوثقافية بالأساس، تُلبي حاجيات الفرد والجماعة في زمن الحاضر في علاقتهم مع ماضيهم، لها وظائف ومهام تمس بشكل مباشر بل ومصيري وجود الفرد والجماعة التي ينتمي إليها، أكثر من مجرد الحرص على التوثيق التاريخي.

لكن ما هذه الوظائف والمهام التي انفردت بها العملية التذكرية في علاقتها مع الماضي، وجعلتها تختلف بالكلية عن الكتابة التاريخية إلى حد المقابل النقيض - كنمط من أنماط الارتباط بالماضي؟

## الذاكرة الجمعية والهوية

يُجيبنا عن هذا التساؤل هالبواكس في كتابه **الذاكرة الجمعية**[2] (*La mémoire collective*) بشكل تعميمي، بتأكيده على أن فعل التذكر يضمن استمرارية الخبرات والتجارب الماضية ودوامها في الحاضر والمستقبل، ومن ثمة تأسيس "الهوية" وضمان سيرورتها، وهو ينطلق من كون أن الفعل التذكري ليس عملية فردية فحسب، بل حدث جمعي يُمكن أن يُمارس دخل الأسرة أو المجتمع أو جماعة بشرية ما؛ بمعنى أن عملية التذكر الفردية لا يمكن أن تنشأ وأن تستمر إلا ضمن إطار اجتماعي معين، وفي كتابه **الإطارات الاجتماعية للذاكرة**[3] (*Les cadres sociaux de la mémoire*)، دحض هالبواكس التصورات العلمية السائدة في عصره حول التذكر، التي كانت تنظر إلى العملية التذكرية كوظيفة بيولوجية محضة، فالذكريات الفردية -حسب هالبواكس- ليست متمركزة ومنحصرة في داخل الفرد، بل تمتلك مكاناً لها ضمن المنظومة الاجتماعية كنتيجة مباشرة لتفاعل هذا الفرد مع محيطه الاجتماعي الذي ينتمي إليه، فعن طريق الحوار مع الآخرين (مثلاً مع أفراد الأسرة أو الأصدقاء أو الجيران وغيرهم) يتسنى للمرء تذكر محطات وتجارب مهمة في حياته، وهكذا فإن استناد الأفراد في استدعائهم للماضي إلى الإطارات المرجعية-الاجتماعية، يجعل ذكرياتهم "الفردية" ذات طابع مرجعي-جمعي، وهذا ما سمّاه هالبواكس بـ: "الطابع الاجتماعي-الجمعي للتذكر".

التذكر هو إذن ليس فعلاً فردياً، بل مناسبة اجتماعية مهمة، وممارستها بشكل مشترك وجمعي ومنتظم، تُشكل بالتأكيد نقطة الانطلاق لنشوء ذاكرة جمعية ما فوق فردية، لا تُؤسس بدورها إلا لأرضية هوياتية مشتركة ومتماسكة.

من هنا أيضاً تتجلى بوضوح الوظيفة الأساسية للتذكر ما فوق الفردي أو الجمعي، كما يراها هالبواكس، ألا وهي تأسيس "هوية" مشتركة وضمان سيرورتها بين الماضي والمستقبل.

يعتبر هالبواكس الذاكرة المشتركة داخل منظومة اجتماعية معينة، شرطاً لا محيد عنه لوجود هذه المنظومة نفسها، حيث أن هذه الأخيرة تُؤسس هويتها عبر فعل التذكر الجمعي المقصود.

على الرغم من أن هالبواكس قد تنبه في وقت مبكر إلى البعد الجمعي للتذكر الاجتماعي، وإلى العلاقة "المصيرية" بين التذكر والهوية داخل المنظومة الاجتماعية، إلا أنه لم يهتم كثيراً بالإجابة عن السؤال: كيف بإمكان التذكر أن يؤسس فعلياً للهوية وأن يضمن بقاءها؟

فَطِن المؤرخ الفرنسي بيير نورا (Nora Pierre) إلى أهمية هذا التساؤل وبديهيته، وقام في مؤَلفه الضخم **أماكن الذاكرة** (*Les Lieux de mémoire*)[4] بفحص ودراسة العلاقة التأثرية المتبادلة بين ما يمكن أن نسميها بـ: "أشكال التذكر" والهوية. وخلُص إلى أن التخلي عن الطقوس التذكرية، وإهمال الأشكال الذاكراتية في جماعة قومية، يفسح المجال أمام تفشي ما يسميه بـ: "النسيان الجمعي"، ما يؤدي لا محالة إلى توهين أسس الهوية القومية وإضعافها، وربما تلاشيها.

يُحاول بيير نورا شرح هذه الفكرة بربطها بالحاضر المُجتمعي الفرنسي في علاقته مع ماضيه القومي، وذلك عن طريق إعطاء أمثلة حية وملموسة عما يسميه بـ "أماكن الذاكرة"، التي يرى أنها الضامن الوحيد ليس لاستمرارية الارتباط الجمعي بالماضي القومي فحسب، بل في المقام الأول لتأسيس الهوية المشتركة-القومية والمحافظة عليها.

فما هي هذه الأماكن الذاكراتية-الهُوياتية؟ وما طبيعتها؟ وما مدى تأثيرها الفعلي في المحافظة على الهوية الجمعية (القومية)؟

## الأماكن الذاكراتية-الهوياتية!

ينطلق بيير نورا -عكس هالبواكس- في تنظيره للوظيفة الهوياتية لما سمّاه بأماكن الذاكرة (الفرنسية) من تصور ذاتي مفاده أنه لم تعد هنالك إمكانية -في عصرنا الحالي- لحضور الذاكرة الجمعية، قائلاً: "كثر الحديث في عصرنا هذا حول الذاكرة الجمعية، وهذا مرده أصلاً إلى غيابها المطلق؛ أي أنه لم يعد هنالك وجود لشيء يحمل هذا الاسم". على هذا الأساس -الذي ينفي وجود الذاكرة الجمعية، على الرغم من كونها واقعاً سوسيوثقافياً مجرداً- ركز نورا في دراساته للوظيفة الهوياتية للتذكر الجمعي على ما اعتبره بالمقابل الحسي للذاكرة الجمعية؛

أي بما سمّاه بـ "أماكن الذاكرة".

تشمل أماكن الذاكرة –حسب بيير نورا– أمكنة جغرافية وبنايات وتماثيل وأعمالاً فنية، كما تشمل أيضاً شخصيات تاريخية وأياماً تذكرية ونصوصاً فلسفية وعلمية والعديد من الأنشطة الرمزية، وهكذا تُعد باريس وقصر فرساي وبرج إيفل من أماكن الذاكرة في فرنسا، أيضاً العلم الفرنسي، والرابع عشر من تموز وكتاب (*Discours de la méthode*) للفيلسوف الفرنسي ديكارت، كلها تندرج تحت مُسمى "أماكن الذاكرة الفرنسية". يعتقد بيير نورا أن بدايات تشكل أماكن الذاكرة الفرنسية وتبلورها، ترجع إلى عصر الجمهورية الفرنسية الثالثة؛ أي في القرن التاسع عشر الميلادي، ففي تلك الحقبة قامت الذاكرة القومية –حسب نورا– بتأسيس الهوية الجمعية الفرنسية، لكن هذه الذاكرة سرعان ما تبددت معالمها ابتداء من النصف الثاني من القرن العشرين، ذلك أن المجتمع الفرنسي العصري يشهد انتقالية ذات وتيرة متسارعة، بدأت فيها معظم –أو إن لم نقل جل– أشكال الارتباط بالماضي والمُؤَسِسة في آن واحد للهوية الجمعية في الاضمحلال التدريجي، ما يجعل أماكن الذاكرة ذلك البديل الحسي و"الاصطناعي" لذاكرة جمعية فرنسية لم تعد موجودة الآن!

في كتابه **أماكن الذاكرة**، يتحدث بيير نورا عن ثلاثة شروط لإضفاء صبغة "الذاكراتية" على مفهوم مجرد أو شيء حسي معين، وبناء عليه يمكننا الحديث أيضاً عن ثلاثة أبعاد لأماكن الذاكرة: البعد المادي، البعد الوظيفي، البعد الرمزي.

البعد المادي لأماكن الذاكرة يجب ألا يحيلنا إلى أن هذه الأماكن تقتصر على أشياء ملموسة (قابلة للمس)، ذات طبيعة مادية فقط كاللوحات الفنية، أو كتب، وغير ذلك: أحداث تاريخية حاسمة، أو دقائق صمت لإحياء ذكرى شخص ميت، تتوفر أيضاً على بعد مادي جلي؛ لأنها –كما يعتقد نورا– عبارة عن "مقطع مادي" محدد من فترات الزمن ووحداته، وكل هذه "التموضعات" تمتلك بعداً وظيفياً؛ بمعنى أنها تُحقق أو تمارس وظيفة محددة ومضبوطة ضمن المنظومة الاجتماعية؛ فكتب معروفة في فرنسا مثل كتاب **تاريخ فرنسا** (*Histoire de France*) لمؤلفه إرنست لافيز (Ernest Lavisse)، وُضعت في بادئ الأمر – قبل أن ترتقي إلى درجة مكان ذاكراتي– لتحقيق هدف معين ومحدد، وهكذا فإن هذا الكتاب التعليمي يُعتمد كمرجع مدرسي أساسي ضمن حصص التاريخ في المدارس الفرنسية. وبالنسبة للمثال السابق، دقائق الصمت، فوظيفتها بالأساس هي الاسترجاع أو الاستحضار الزمني المؤقت لذكرى أو ذكريات محددة. وأخيراً وليس آخراً، يتحتم على هذه التموضعات –لكي ترتقي إلى مرتبة أماكن الذاكرة– أن تتوفر أيضاً على بعد رمزي؛ أي أن تكون حاملة معنى رمزياً معيناً، وهذا يظهر بوضوح مثلاً حينما تنتقل ممارسات أو أفعال معينة إلى طقوس مُحاطة بهالة رمزية، فقط بعد هذا "الارتقاء الرمزي" تصبح هذه التموضعات حاملة الطبيعة الحضارية نفسها التي تمتلكها أماكن الذاكرة في منظومة اجتماعية ما.

هذا التعريف الواسع لمفهوم أماكن الذاكرة جعل العديد من النقاد يطرحون تساؤلات مشروعة حول كيفية فصل أماكن الذاكرة عن غيرها من الأماكن اللاذاكراتية، والحقيقة أن تعريف بيير نورا يجعل على كل حال النظر إلى جل الظواهر السوسيوثقافية –الجمعية المرتبطة عن وعي أو عن غير وعي بالماضي المشترك وبالهوية القومية لمجتمع معين كأماكن للذاكرة أمراً مقبولاً بل ممكن.

استطاع بيير نورا عبر هذا النموذج التنظيري أن يُعالج المسألة الذاكراتية كواقع جمعي–هوياتي ذي تمظهرات محسوسة، عكس الكثير من الباحثين في هذا مجال، الذين دأبوا على التعامل مع الذاكرة الجمعية كظاهرة سوسيوثقافية مُجردة، حيث تأثروا في ذلك بتراث هالبواكس التنظيري.

وهكذا فتحت نظرية أماكن الذاكرة آفاقاً تنظيرية جديدة في مجال البحث الذاكراتي الثقافي، أسهمت في زيادة الوعي بضرورة التعاطي مع التذكر الجمعي كواقع مجتمعي محسوس. إذن، ليس من الغرابة في شيء أن يجد هذا المشروع الجديد في حقل الذاكرة الجمعية مُساندين له خارج حدود التنظير الفكري الفرنسي، وهكذا ظهرت مشروعات تنظيرية مماثلة في داخل القارة الأوربية وخارجها، استلهمت معظمها النهج التنظيري لأماكن الذاكرة الفرنسي، مثل المشروع الألماني (Erinnerungsorte) (2001)، الذي لم يقتصر على النطاق الألماني فحسب، بل كان منفتحاً في عمومه على الأفق الأوروبي، أيضاً ظهر مشروع تنظيري آخر في الولايات المتحدة والمعروف بـ(Memory of site) وغيرهما من المشاريع التنظيرية حول أماكن الذاكرة في بلدان ومناطق أخرى.

## أماكن الذاكرة الفلسطينية ومسألة الهوية

على الرغم من هذا التشعب التنظيري –إلى حد التضارب– الذي عرفه مفهوم الذاكرة كظاهرة سوسيوثقافية–جمعية، والذي يحيل في جميع الأحوال إلى الأهمية القصوى التي يحَظى بها هذا الموضوع، فإنه يَظهرُ بجلاء أن هنالك اتفاقاً على ضرورة التفريق المفهومي والوظيفي بين أماكن الذكريات "الحية" والتاريخ الزمني المكتوب، وعلى قدرة الذاكرة وأمكنتها في الحفاظ على استمرارية الصورة الذاتية (أي الهوية) لجماعة بشرية ما (هالبواكس وبيير نورا). من هذا المنطلق، أحيل في نهاية هذه الدراسة النظرية الموجزة (حول علاقة التذكر بالهوية على المستوى الجمعي) إلى ضرورة البدء في التعاطي التنظيري مع أماكن الذاكرة الفلسطينية كسبيل من سبل مواجهة التلفيق التاريخي الممنهج، الذي يمارس في إطار الكتابة "العلمية–الموضوعية" بشكل مُتكرر.

أماكن الذاكرة الفلسطينية هي في الوقت ذاته أماكن الهوية والوجود الفلسطينيين، فإلى جانب أماكن الذاكرة الفلسطينية التقليدية، مثل: المسجد الأقصى، ومدينة القدس، والخليل، ومجزرة دير ياسين، والعام 1948، وغيرها، فإن أماكن ذاكراتية حديثة مثل العلم الفلسطيني، وديوان لشاعر فلسطيني معاصر، وصورة فوتوغرافية لشهيد في مقتبل العمر، ومُلصق لتيار سياسي–شعبي، أو لحركة عسكرية مُقاومة، وقناة تلفزية فلسطينية، ومجلة فلسطينية متخصصة . . . الخ، كلَها لا

تؤسس لهوية فلسطينية متجددة فحسب، بل تجعلها أكثر وعياً بوجودها وطبيعتها وخصوصيتها في مواجهة عدوها المحتل.

ويجب ألا يتبادر إلى الذهن أن الأماكن الذاكراتية الفلسطينية (دائماً بمفهوم بيير نورا) تنحصر ضمن المجال الجغرافي الفلسطيني التقليدي فحسب، بل قد تتجاوزه مكانياً (على سبيل المثال: رواية فلسطينية تصدر في عاصمة غربية)، فأماكن الذاكرة الفلسطينية لا ترتبط بالضرورة بالأصل الجغرافي، ولا هي أيضاً ذات بعد جغرافي صرف، ولو أنها تُحيل إليه دائماً وأبداً عن وعي أو عن غير وعي. أيضاً أماكن الذاكرة الفلسطينية لا تقتصر على كل ما هو فلسطيني، بل هي تحيل كذلك إلى المُحتل المقُوت، وهو يبدو بلا شك شرطاً من شروط إضفاء طابعي الذاكراتية والهوياتية على هذه الأمكنة، فضرورة أو حتمية مقاومته تُمثل أحد القواسم المشتركة لكل من يعيش بين هذه الأمكنة الذاكراتية-الهوياتية.

صَوْن أماكن الذاكرة الجمعية الفلسطينية وحمايتها من أشكال التدمير الحسي والمعنوي المستمرين -وإن كان ضرورة قصوى- فإنه لا يكفل إلا الحفاظ على الجزء التقليدي -المحدود في طبيعته- من الأمكنة الذاكراتية الفلسطينية (القديمة). وعلى هذا الأساس، فإن التأسيس الدؤوب لأماكن جديدة للذاكرة الفلسطينية (اعتماد على التنظير الذاكراتي في مجال العلوم الثقافية) ضمن سياق سوسيوثقافي فلسطيني يتجاوز المكان الجغرافي، أصبح بدوره مطلباً آنياً ومصيرياً يفرض نفسه بإلحاح، ذلك أنه لا يكفل تثبيت تجليات الذاكرة الفلسطينية والحفاظ عليها فحسب، بل أيضاً مُسايرة تطور الذات الفلسطينية في علاقتها مع حاضرها وماضيها، ما يعني خلق وعي ذاكراتي متماسك بالهوية الفلسطينية للأجيال القادمة.

**زهير سوكاح**
**باحث مغربي**
**في مجال الذاكرة الجمعية، يقيم في ألمانيا**

## الهوامش

[1] Astrid Erll: *Kollektives Gedächtnis und Erinnerung-skulturen*, p:41-45.

[2] صدر هذا الكتاب غير مكتمل في باريس سنة 1950، بعد خمس سنوات على وفاة هالبواكس.

[3] صدر في باريس سنة 1925، وهو أول كتاب لهالبواكس يعالج فيه مفهوم الذاكرة الجمعية.

[4] صدر هذا الكتاب المؤلف من سبعة أجزاء في فرنسا سنة 1994.

## المراجع

- Astrid Erll: *Kollektives Gedächtnis und Erinnerung-skulturen*.
- Birgit Neumann: *Literatur, Erinnerung, Identität. In: Gedächtniskonzepte der Literaturwissenschaft*.
- Gudrun Krämer: *Geschichte Palästinas*.

من مساق "الفنون والعلوم" الذي نفذه الفنان الاسكتلندي جورجسن روس في مقر المركز نهاية حزيران الماضي واستهدف تدريب معلمي العلوم على توظيف الفنون في تعليم العلوم.